الفصل الأول

موضوع علم النفس[1]

لم يصبح علم النفس علما وضعيا إلا من عهد قريب ، ذلك أنه كان فرعا للفلسفة ، فقد كان الباحثون فى علم النفس يضعون نصب أعينهم البحث عن ماهية النفس أو الروح . ولما كانت هذه الدراسة داخلة فى مباحث ما وراء الطبيعة ، لم يصل الباحثون إلى معرفة وضعية جديرة بالاعتماد عليها . ولما كانت مهمة القدماء هى البحث عن النفس أو الروح ، فقد سمى العلم الذى يعرض لهذا البحث بعلم النفس Psychologie ، وهذه كلمة تمتد أصولها إلى كلمتين إغريقيتين Psyché ومعناها النفس ، و Logos ومعناها درس . ثم انصرف العلماء إلى ناحية أخرى من البحث أكثر إنتاجا ، وأدعى إلى الوصول إلى نتائج صحيحة ، تلك هى البحث عن مظاهر النفس ، لأن النفس أو الروح عند المثبتين لها شىء لا ندركه ولا نمسه ولا نحسه ، قال الله سبحانه وتعالى : « و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى »

فإذا كنا قد احتفظنا بهذه التسمية القديمة فهو احتفاظ غير دقيق ، ولكننا تعودنا ذلك فلا سبيل إلى الرجوع عنه ، وذلك مثل إطلاقنا اسم جزر الهند الغربية خطأ على الجزر الواقعة فى شرق أمريكا .

وقد ظل علم النفس متصلا اتصالا وثيقاً بالفلسفة بل فرعاً منها . ولم تبدأ دراسة هذا العلم دراسة منفصلة مميزة عن غيرها من العلوم إلا فى القرن الثامن عشر

---

(١) L'objet de la Psychologie

حيث قام بعض العلماء على التتابع يحاولون بحث المسائل النفسية بطريقة علمية .

وظل تاريخ علم النفس حتى القرن التاسع عشر خاضعاً لحركتين مختلفتين وتيارين متباعدين ، يقتربان تارة ، ويتباعدان فى تعارض تارة أخرى ، وهما :

(١) محاولة العلم أن يتخلص من الفلسفة ، وهـذه المحاولة قد تذهب إلى حد إخضاع علم النفس إلى علم وظائف الأعضاء .

(٢) محاولة البحث عن ميـدان علم النفس وعن طرق البحث فيه ليصبح علما مستقلا .

وقد أنشئت فى انجلترا وفرنسا وألمانيا و إيطاليا وأمريكا المجلات العلمية الخاصة بعلم النفس ، وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر ، وفى هـذا دليل على استقلال العلم ، وعلى الاعتراف بكيانه الخاص .

ولـكن أصوات المعارضة ارتفعت من جديد ، لا لتنكر على العـلم وجوده ، ولـكن لتحتج على وضع علم النفس ، وهو علم العقل ، فى مكان واحد من العلوم الطبيعية . وعاد علم النفس على أعقابه فى حركتين :

(١) الحركه الأولى تنادى بأهمية الاتصال المبـاشر [١] بالحالات النفسية وعلى رأس هذه الحركة « برجسون » وقد تأثر « وليم جيمس » بآراء برجسون وأصبح يقول بمبادئه ؛ وهى حركة فى مجموعها ميتافيزيقية .

(٢) الحركة الثانية اجتماعية ، وهى تنادى بإخضاع الدراسة النفسية للمجتمع وعلى رأسها « دوركهيم » .

وظلت سفينة العلم فيما بين الحركتين ، تجرى حاملة راية النصر ، وسنرى فى النهاية لمن يعقد الظفر .

---

(١) Intuition

ولا يجب أن نخشى هـذه الاتجاهات المختلفة ، وأن يهدم تعارضها أساس العلم ، فإنْ هى فى الواقع إلا وجهات نظر لموضوع واحد ، تنير مسالكه المختلفة وتلقى الضوء على فروعه المتشعبة .

ميدان علم النفس[١] :

إذا شئنا أن نضع تعريفاً لعلم النفس فإننا نجد ذلك من الصعوبة بمكان ، وأقرب التعاريف إلى أنفسنا هو أن نقول : إن علم النفس هو العلم الذى يبحث فى الظواهر النفسية[٢] .

وهو تعريف مريح فى ظاهره ، ولكنه يؤدى إلى كثير من اللبس ، ذلك أن كل شىء له ناحية نفسية ، فالصفات التى يلاحظها عالم الطبيعة ، والوثائق التى ينقدها المؤرخ ، ترجع فى النهاية إلى معان وذكريات ومدركات ، أو قل إن شئت إلى موضوعات عقلية . ومن ناحية أخرى نجد أن الصور والأفراح والآلام والميول والرغبات تتجسم فى صور مكانيـة . وهى تمثل دائماً فى وضوح أو غموض ، حالات الجسم وحركاته .

فإذا قلنا إنها ظواهر أو أحداث باطنة ، فإننا نقصد أولا وقبل كل شىء ، أنها لايدركها الناس جميعاً بل يدركها صاحبها فقط ، كما أن البيوت من الداخل لايراها المارة فى الطريق ، ولكن هـذا لايدل على أن المقيمين فى داخلها يختلف إدراكهم عن إدراك غيرهم ، بل يدل على أن معرفة باطن المنزل محدود بأصحابه . كذلك إدراك الإنسان لظواهر نفسه وقف عليه .

---

(١) راجع مقال الأستاذ « لالاند » عن ميدان علم النفس فى الجزء الأول من كتاب « دوماس » فى علم النفس .

(٢) Phénomènes psychologiques .

فإذا كنا لانستطيع أن نضرب صفحاً عن هـذه الناحية الشخصية فى علم النفس ، فإنه لا بد لنا أن نتجه به إلى ناحية موضوعية أيضاً ، هـذه الناحية الموضوعية هى سلوك الناس وتصرفاتهم ؛ وقد نشأ عن ذلك نوع من الدراسة فى علم النفس هو ما يسمى بعلم النفس السلوكى ، ذلك أنه لضروب الحيوان الراقية وعلى الأخص الإنسان لأنه أشرفها ، طريقة خاصة للسـلوك فى الظروف المختلفة من الحياة ، ونهجاً خاصاً يطرقه فى ميادين الحياة المتباينة ، وردوداً على المؤثرات التى يلقاها ، أو قل إن شئت نوعاً من السلوك لايتفق مع الوظائف المنتظمة العامة التى تدرس عادة فى علم الفسيولوجيا .

فالاتجاه الحديث فى علم النفس هو أن يكون هذا السلوك موضوع البحث . وقد لجأ العلماء إلى هذه الناحية ليتجنبوا كثيراً من المسائل المعقدة التى لم يصـلوا إلى حلها فيما يختص بالحياة العقلية وفيما يختص بنفسية الحيوان .

ولا شك أن هذا الاتجاه فى علم النفس قد أدى له خدمات جليلة ، من حيث الوصول بالأبحاث إلى الدقة والوضوح ، والتقريب بين علم النفس و بين غيره من العلوم الطبيعية ؛ ولكن هذه الطريقة لاتستطيع أن تستغرق جميع فصول العلم ، و إذا كانت صالحة فى بعض الأبواب ، فإنها تقف عاجزة فى أبواب أخرى ، إذ أنه كيف نصل إلى دراسة الألم والفرح والرغبة دون أن يرجع أصحابها إلى أنفسهم . ولنضرب مثلا أكثر إيضاحاً لما نريد أن نقول ؛ حينما أجرى العلماء التجارب على التعب ، وجدوا أن التأمل الباطنى ضرورى ، لتمييز الآثار الناشـئة عن المجهود المستمر من تلك الناجمة عن الضيق أو المترتبة على تهيّج سطح الجلد .

كذلك لا نستطيع أن نضرب صفحاً عن الناحية الوجدانيـة من الحياة

النفسية ، كالعواطف المختلفة التى تحدد مواقفنا من غيرنا ، وتحدد مواقف الناس منا ، وتحدد موقفنا نحو أنفسنا .

يكفى أن نتصور إنساناً آلياً ، يتحرك ويسكن ويأكل ويشرب ويبتسم ويتكلم ويقوم بالعناية بأمرك ، ويجيبك إذا حدثته ، ويحييك إذا انصرف عنك ... أتظن أنك تنزل هذه الآلة منزلة الإنسان ؟

ويجب ألا ننسى علماً له أهمية هو علم الأخلاق ، يستمد دعائمه من علم النفس ، من حيث هو دراسة الضمائر الخفية ، والمشاعر الباطنة ؛ فإذا كان علم الأخلاق ينشد الواجب فإن علم النفس يصف الواقع . ونحن نعلم أن قيمة الأعمال الخلقية لاتنحصر فى انطباقها على القوانين ، بل فى النوايا الطيبة أو الخبيثة التى تدفع صاحبها إلى العمل . فإذا اقتصر علم النفس على الوصف الظاهرى للأعمال ، كأن نقول إن الألم هو مجموع أعراض نشخصها كما يأتى : تقلصات عضلية ، اضطراب وضعف فى التنفس ، عرق ، اتساع حدقة العين ... ألخ ، فلن نستطيع أن نستفيد من علم النفس فى علم الأخلاق أو التربية .

والخلاصة من كل هذا أن علم النفس أصبح هو العلم الذى يبحث فى سلوك الناس وتصرفاتهم وأعمالهم من حيث هى مظهر للظواهر النفسية .

وعلى أساس هذا التعريف يتجه البحث إلى ناحيتين : الأولى مسالك الناس ، والثانية الظواهر النفسية ، مثال ذلك إذا رأيت رجلا يعالج باباً مقفلا ، فهنا أمران : الأمر الأول العمل أو السلوك الذى صدر عن هذا الرجل ، وهو وقوفه إلى الباب يحاول أن يفتحه ، الأمر الثانى ما يجرى فى ذهنه من التفكير فى كيفية معالجة الباب ، ومن الأحاسيس الوجدانية ، كالغضب لعدم تمكنه من الفتح ، وصعوبة الحال أمامه ؛ فالتفكير والغضب ظواهر نفسية ، ووقوف

الرجل بجانب الباب وتحريك يده هو السلوك الواضح لنا . فأساس علم النفس البحث فى الظواهر النفسية التى تؤدى إلى العمل ، أو العمل من حيث هو مظهر لهذه الظواهر أو الأحداث .

مناهج البحث فى علم النفس :

لكل علم من العلوم طريقة خاصة للبحث فيه ، فمنهج الرياضة يختلف عن منهج العلوم الطبيعية أو العلوم التاريخية . ويرجع التقدم العلمى والوصول به إلى الدقة والكمال ، إلى كشف المنهج العقلى الصحيح الذى نهتدى به إلى الوقوف على خبايا العلم . وقد ظلت العلوم الطبيعية حتى عصر النهضة فى أوربا متأخرة ، حتى فكر الفلاسفة فى النهج الذى يسيرون عليه ، ليفتح أمامهم أبواب العلوم . ونستطيع أن نوجز منهج العلوم الطبيعية فيما يأتى :

(١) ملاحظة ظواهر الطبيعة وجمع المتشابه منها تحت الكليات العامة .

(٢) محاولة تعليل هذه الكليات العامة بافتراض الفروض .

(٣) تمحيص هذه الفروض ونبذ الفاسد منها واستبقاء الصحيح الذى يسمى حينئذ قانوناً .

فطريقة البحث فى العلوم الطبيعية تبدأ بملاحظة الظواهر ، وتنتهى بالقوانين العامة .

فهل لنا أن نسلك نفس هذه الطريقة فى علم النفس ؟ أما أصحاب المدرسة السلوكية [1] وهم الذين يحاولون أن يدرسوا الإنسان باعتبار أنه موجود مادّى يعمل ويتصرف فى عالم الحس دون أن يعترفوا بما للظواهر النفسية من الوجود ، فإنهم يتبعون طريق الملاحظة الخارجية أو الظاهرة .

---

(١) Behavioristes

ولكننا لم نأخذ بهذا الجانب فقط فى تعريفنا للعلم ، بل أضفنا إليه وجهة نظر أصحاب المدرسة الأخرى ، وهم الذين يعترفون بوجود الظواهر النفسية . فهل تصلح طريقة الملاحظة الظاهرة فى البحث عن الأحداث النفسية ؟

الظواهر النفسية التى تدور بخلد صاحبها لا يستطيع أن يعلمها على وجه التحقيق إلا صاحبها فقط ، فهو الذى يشعر بفرحه وألمه وخوفه وغضبه ، وهو الذى يشعر بتفكيره ، وهذه الحالات محبوسة فى نفس صاحبها كسكان المنزل لا يراهم المارة من الطريق ، ولكنهم هم الذين يرون أنفسهم . وإذن فلا مندوحة لنا ، إذا أردنا أن نسجل هذه الحالات التى تدور فى أنفسنا ، إلا أن يسجلها صاحبها ، ومن هنا نشأت طريقة التأمل الباطنى .

التأمل الباطنى (١) :

هو ملاحظة الإنسان لنفسه ، أو انعطاف الشخص على نفسه ، ليراقب ما يجرى فيها من الحالات والظواهر .

وهذه طريقة ينفرد بها علم النفس عن غيره ، ويتميز بها عن سائر العلوم . ذلك أننا حين نلاحظ الظواهر الطبيعية يكون الشخص الملاحظ مستقلا عن الحقائق التى يلاحظها . ولكننا ها هنا نجد أن الشخص يلاحظ نفسه ، فالملاحِظ والملاحَظ شىء واحد .

وقد اعترض العلماء على طريقة التأمل الباطنى بما يأتى :

(١) لا يستطيع الشخص أن يلاحظ نفسه فى عين الوقت الذى تحدث فيه الظاهرة ، فلو فرضنا أنه يقرأ فى كتاب ويريد أن يلاحظ كيف يقرأ ، فهذا أمر

---

(١) Introspection.

مستحيل ، لأن النفس لا تستطيع أن تقوم بعملين مختلفين فى آن واحـد . إذ كيف يلاحِظ فى نفس اللحظة التى يقرأ فيها ؛ وعلى ذلك يكون ما تقع عليه هذه الملاحظة إذا تمت ليس هو الشىء فى حال وقوعه .

(٢) استحالة ملاحظة الظواهر عنـد ما يكون النشاط العقلى شديداً ، كما فى حالة الشهوات والانفعالات العنيفة ، والمجهود الشديد ، والانتباه العظيم ، والتفكير العميق ، فإن مثل هذه الحالات تأخذ على الإنسان مشاعره ، وتستغرق كل نشاطه ، فلا يستطيع أن يوجه إليها أى ملاحظة .

(٣) ومن طبيعة الشعور[١] أن يترك حول بؤرته هامشا يكون أقل وضوحا من بؤرة الشعور ، وكثيراً ما تكون أطراف هذا الهامش بعيدة عن متناولنا .

مثال ذلك : المستمع إلى قطعة من الموسيقى يكون انتباهه مركزاً فى سماع هذه القطعة ، ولـكن أشياء أخرى كرؤية أثاث الغرفة الموجود حوله ، إلى غير ذلك ، تكون موجودة فى شـعوره ، ولـكن ليست بدرجة من الوضوح تسمح له أن يتبينها تماما ، ولو أنه يشعر بها .

(٤) يضاف إلى ذلك أن الإنسان خاضع لمعتقدات كثيرة يتعودها و يؤمن بها ، فيلاحظ الحالات النفسية خلال هذه المعتقدات ، بينما هذه الحالات تختلف عما يلاحظه .

هذه الاعتراضات نظرية أكثر منها عملية ، إن دلت على شىء فإنها تنبهنا إلى اتخاذ الحيطة والحذر ، ولـكنها لا تهدم التأمل الباطنى ؛ ذلك أن الحقيقة التى لا شك فيها هى أننا نلاحظ أنفسنا ، ولا نستطيع إلا أن نلاحظ أنفسنا .

---

(١) Conscience.

أما الاحتياطات التى يجب اتخاذها للوصول بالتأمل الباطنى إلى الدقة والوضوح فهى :

(١) يجب تدوين الظواهر التى نلاحظها بأسرع ما يمكن حتى لا يصيبها التغير ، كما أثبتت التجارب التى أجريت على التذكر والأحلام .

(٢) عند ما نحصل على ملاحظات غيرنا ، يجب أن نخضعها للطرق العملية فى البحث ، فنرى هل هى دقيقة صادقة ... أى نتبع طريقة النقد العلمى .

(٣) يحسن بالباحث فى علم النفس أن يلاحظ الظواهر ويجربها فى نفسه أولا ، ثم يسأل عن تجارب الغير .

(٤) يجب أن يتجنب الباحث الإيحاء الذاتى ، والإيحاء إلى الأشخاص الذين يلاحظهم . ولتجنب الإيحاء طرق عدة ليس هنا محل لذكرها .

(٥) يتبع العلماء طريقتين للحصول على ملاحظات الناس لأنفسهم ، هما طريقة السؤال وطريقة الاختبار الشخصى [١] . وطريقة الأسئلة هى توجيه سؤال أو عدة أسئلة مطبوعة ، تنشر فى مجلة ، أو تبعث عن طريق البريد ، فيجيب عنها عدد كبير من الناس ، وبذلك نحصل على عدد كبير من أجوبة مختلفة . أما الاختبار الشخصى فهو أن يُحضر العالِم الشخص ، ويسأله أسئلة خاصة محدودة يجيب عنها . والطريقة الثانية أفضل من الأولى .

طريقة الاتصال المباشر :

إن طريقة التأمل الباطنى ، تنصبّ على تقييد الظواهر كما هى ، ولكن « برجسون » انتقدها من ناحية الاتجاهات الذهنية المختبئة وراء الملاحظة النفسية

---

(١) الأسئلة Le questionnaire.
الاختبار الشخصى L'enquête Personnelle

العادية ، فأدخل تعديلا كبيرا على هذه الطريقة ؛ ذلك أننا نفكر خلال اللغة التى نتكلمها ، وهذه اللغة تصلح على الأخص للتعبير عن الروابط الاجتماعية ، ولنقل العواطف والسلوك فى الحياة العملية . وقد نتج عن ذلك أن اللغة تدور على الأغلب حول المعانى المادية ، أو إن شئت فقل المكانية . ومن الواضح لنا أن جميع المصطلحات التى تخص الحياة العقلية تدل فى بدايتها على مدلولات مادية ، مثال ذلك النفس أو الروح فإنها تدل على (نَفَس souffle) .

ولما كانت الحياة الروحية أو العقلية تحمل من العلاقات ما يختلف عن الحياة الحسية ، فإنه وجب أن نبذل جهداً كبيراً لنغير من العادات العقلية فى التفكير واللغة حتى نصل إلى فهم مظاهر الشعور على حقيقتها ، ذلك أن كل ما يخص الزمان ، يتغير تغييراً كبيراً حين يترجم فى لغة المكان . وإذا كان فى استطاعتنا أن نلغى الزمان إلى حد كبير فى دراسة الأمور الطبيعية ، فإننا نجد أن الزمان عامل يأتى فى المحل الأول فى دراسة الحياة الشخصية .

للوصول إذن إلى حسن الاتصال بمظاهر الشعور يجب أن نتبع هذه الطرق :

(١) تحصيل معلومات واسعة عما نريد أن نلاحظه ، فمثلا فيما يختص بالذاكرة يجب معرفة جميع الأبحاث الفسيولوجية التى أجريت حتى الآن بواسطة الأخصائيين فى هذا الأمر .

(٢) أن يتصل الشخص اتصالا مباشرا بالمظاهر دون أن يعمد إلى تحليلها عقلياً ، بل تكون الصلة بالظواهر أشبه شىء بالكاتب أو الفنان ، الذى يبصر أثره الفنى كلاً لايتجزأ

(٣) بعد ذلك نعمد إلى الطريقة العلمية المعروفة ، أى جمع هذه المشاهدات الشخصية وترتيبها و بيان المتشابه منها .

طريقة الملاحظة الظاهرة [١] :

إذا كان التأمل الباطنى والاتصال المباشر بالظواهر يؤديان بنا إلى معرفة الميدان الأول من ميادين علم النفس ، فإن هاتين الطريقتين لا تصلحان فى ارتياد الميدان الآخر ، وهو سلوك الناس وتصرفاتهم . ولا سبيل لنا حين نريد أن نسجل مسالك الناس إلا أن نتبع طريق الملاحظة الظاهرة كما نفعل فى العلوم الطبيعية ، فنسجل سلوك الناس فى المواقف المختلفة والمؤثرات التى تحدوهم إلى العمل ، دون النظر إلى داخل نفوسهم وما يجرى بباطنهم ، مثال ذلك : دخل شخص منزله فى الليل فإذا بلص يطلع عليه فى يده سكين حاد ، فاصفر وجه صاحبنا ، ونضح عرق بارد على وجهه ، وجمد فى مكانه ، واضطربت أنفاسه ، ولم يستطع أن يلفظ بشىء ، فنحن هنا نصف الموقف الخارجي ، الذى نراه . فمن ناحية نجد مؤثرا وهو هذا اللص ، ومن ناحية أخرى نجد تصرف هذا الشخص ومظهره الخارجى . ولم نعمد هنا إلى معرفة ما يجرى بداخل نفسه .

طرق المقارنة [٢] :

١ — بحث الأمراض النفسية والتحليل النفسانى :

تخضع الأمراض النفسية وغيرها لقوانين طبيعية ، كما تخضع الأمور العادية تماماً ، وينشأ المرض عن مخالفة الحالة الاعتيادية بسبب اختلال المزاج بين بعض العناصر أو العمليات . وقد أدت دراسة الأمراض البشرية إلى تقدم العلوم الطبية ، لأن هذه الحالات الشاذة توضح لنا وتنير أمامنا سبيل الحياة

---

(١) Observation Extérieure.

(٢) Les méthodes Comparatives.

الاعتيادية . كذلك أدت دراسة الأمراض النفسية خدمات جليلة لعلم النفس ، إذ توصلنا من بحث هـذه الأمراض إلى التمييز بين الشعور واللاشعور ، و إلى معرفة أشياء كثيرة تختص بالإرادة والذاكرة واللغة وغيرها .

وقد كان العلماء منذ بضعة عشر عاماً ، يلجأون إلى استعمال طريقة التنويم المغناطيسى ، والإيحاء ، حتى يدلى الأشخاص المنومون أو الموحى إليهم بما يجرى فى نفوسهم من ظواهر . وقد عدل العلماء الآن عن هاتين الطريقتين تماماً ، لأنهما يؤديان بالشخص الواقع تحت مثل هذا التأثير ، إلى الإفضاء بالحالات النفسية التى تعتريه وهو فى هذا الوضع ، ولكنه لايخرج لنا ما يجرى فى نفسه من المظاهر العادية .

أما التحليل النفسانى وهو المشهور باسم منظمه العالم « فريد » فخلاصته أن أشخاصاً تصدمهم انفعالات لايقوون على احتمالها ، أو يريدون رغبات لايستطيعون تنفيذها ، فتتراجع هذه الانفعالات أو الرغبات وتعيش مكبوتة فى اللاشعور ، هذه العقد النفسية الخفية تحاول الظهور فتخرج فى صور رمزية فى الأحلام والحركات العصبية ، والأقوال غير المقصودة ، إلى غير ذلك .

وطريقة التحليل النفسانى هى ما يأتى :

(١) توجيه الأسئلة إلى المرضى .

(٢) تحليل رغبات وحركات و إشارات المرضى خصوصاً غير المقصودة .

(٣) تحليل الأحلام التى تدل على رغبات مكبوتة تظهر فى صور رمزية عن طريق اللاشعور .

٢ — الطريقة التطورية والاجتماعية :

نستطيع أن نقول إن نظرية التطور أصبحت تقوم على أساس من الصحة بعد أن نادى بها « دارون » وأتباعه . ذلك أن الكائنات الحية يتصل بعضها

ببعض فى سلم التطور ، وقد طبق العلماء هذه النظرية على الحياة العقلية ، وزعيم هؤلاء العماء هو « سبنسر » ؛ والغرض من هذه الطريقة هو تفسير العمليات العقلية فى تطورها بدل أن نكتفى فقط بوصفها كما نفعل الآن . فعلينا إذن أن نبحث نفسية الإنسان الأول ونفسية الجماعات البدائية ، لنقارنها بعقلية الإنسان فى الوقت الحاضر .

كذلك تدرس نفسية الأطفال فى تطورها من عهد الطفولة الأولى إلى مرحلة الشباب .

ولكن هناك اعتراضات كثيرة تقوم فى وجه ما ذكر من جهة تفسير القوانين العقلية ، ذلك أن القول بحياة أولية وحشية لا يعدو مجرد الافتراض الذى يفتقر إلى الدليل العلمى ، إذ ليس من الضرورى أن القبائل المتوحشة الموجودة الآن تماثل حالة الشعوب المتوحشة التى تطورت إلى الجماعات المتحضرة الموجودة الآن . كالشيخ المسن الذى يكون فى عقلية الأطفال ، فإنه لايعود طفلا من جميع الوجوه ، بل هذا مجرد تشبيه ، فكذلك القبائل المتوحشة إن هى إلا شعوب هرمة فى عقلية الطفولة ، ولكنها ليست فى مرحلة الطفولة .

كذلك للأطفال حياة عقلية مستقلة تمام الاستقلال عن حياتنا العقلية . وقد كان الخطأ السائد عند العلماء هو أن الطفل رجل صغير ، حتى جاء « روسو » وغيّر هذه العقيدة ، مبينا أن نفسية الطفل تختلف فى نوعها عن نفسية الرجل . وقد أصبح لدراسة المجتمع أثر كبير فى بيان كثير من أبواب علم النفس ؛ فهناك ظواهر نفسية اجتماعية تسود جميع أفراد المجتمع كالغريزة ، أو تخص شعبا من الشعوب كالعادات والتقاليد والمعتقدات واللغة . وإذا نظرنا إلى أغلب الظواهر النفسية نجد أنها تخضع للغة إلى حد كبير ، واللغة مع كونها طريقا للتفاهم بين

الأفراد ، فهى خاضعة لضرورات اجتماعية تكسبها الصبغة التى تكون موجودة عليها .

٣ — نفسية الحيوان :

لقد فطن العلماء من قديم الزمان إلى أن الإنسان يشبه سائر الحيوان فى كثير من الأمور ، حتى لقد عرّفوا الإنسان بأنه « حيوان ناطق » ، والموازنة بين نفسية الإنسان والحيوان تفيدنا إلى حد كبير ، وهناك طرق كثيرة يتبعها العلماء فى هذه الدراسة نجملها فيما يأتى :

(١) الملاحظة الظاهرة ، أى ملاحظة سلوك الحيوان فى الظروف المختلفة ، كما فعل الأستاذ « فابر Fabre » فى كتابه « الغريزة عند الحشرات » وهذه الطريقة تحتاج إلى كثير من الصبر والجهد والدقة .

(٢) إجراء التجارب ، أى إخضاع الحيوان لمؤثر صناعى حتى نرى ما يحدث له ، مثال ذلك : أنهم جاءوا بقطة فى أحد معامل علم النفس ، ثم أدخلوا عليها فجأة كلباً كبيراً ، فذعرت القطة ، وهنا شاهدوا بواسطة أشعة « أكس » أن معدتها شلت عن العمل مقدار عشرين دقيقة ، وهذا بطبيعة الحال أثر من آثار الخوف .

(٣) تدريب الحيوان ، وقد أجريت كثير من التجارب على القردة والفيران لمعرفة مقدار ذكائها ، وطريقة ذلك أن يوضع الحيوان فى مأزق يحاول الخروج منه ، ثم نشاهد نتيجة هذه المحاولات .

المقاييس فى علم النفس :

يقوم تقدم العلوم على التعبير عن الظواهر الطبيعية بكميات رياضية ومعادلات

جبرية ، وقد شغلت هذه الفكرة العلماء المتصلين بعلم النفس ، فحاولوا ردّ الكيفيات النفسية إلى كميات رياضية ؛ والغرض من ذلك قياس هذه الصفات بصورة دقيقة ، لأن الصفات لايمكن قياسها القياس الرياضى .

ومن أقدم العلماء الذين قاموا بمثل هـذه المحاولات عالمان ، لايزال لبعض آرائهما قيمة حتى الآن ، هما « ڤبير » و « فشنر »

وخلاصة ما وصـلا إليه هو أن الإحساسات المختلفة يمكن قياسها ، وذلك بواسطة البدء من مؤثر الإحساس ، ثم التدرج فى زيادة هذا المؤثر . كذلك يمكن قياس الزمن الذى تستغرقه بعض الحالات النفسية ، وذلك باستعمال أجهزة دقيقة مختلفة مثل « مسجل الزمن[١] » الذى يقيس مدة رد الفعل[٢] وقد اتبع العلماء كثيرا من الطرق لقياس التعب والانتباه ... الخ .

وقد انتشرت فكرة الاختبارات فى علم النفس مثل اختبار الذكاء ، و بعد الحصول على نتيجة هذه الاختبارات[٣] يجرى الباحثون عليها كثيرا من العمليات الرياضية ، كاستخراج المتوسطات ، وتقدير الأخطاء المحتملة ... الخ مما يحتاج إلى كثير من الرياضيات العالية .

ولا تزال هذه الطرق فى مبدئها ، وتُوجه إليها كثير من الاعتراضات ، و يُشك كثيرا فى النتائج التى نحصل عليها بوساطتها ؛ و يرجع ذلك فى الواقع إلى صعوبة تطبيق الرياضة على العمليات العقلية ، التى تتشعب مؤثراتها وتكثر توجيهاتها .

---

(١) Chronographe.

(٢) Temps de reaction.

(٣) Test.